

مصطفى كامل

١٨٧٤ - ١٩٠٨

يحتل مصطفى كامل في تاريخ مصر وفي تاريخ حركتها الوطنية موقعاً مرموقاً. فهو أحد الأبطال التاريخيين الذين نهضوا بمصر بعد فشل ثورة عرابي واحتلال الإنجليز لمصر وأسّسوا لحركة وطنية رفعت منذ البداية شعار الاستقلال مرفقاً بشعار جلاء القوات الإنجليزية عن مصر. أهمية تلك النهضة التي كان مصطفى كامل أحد أبطالها أنّها جاءت في زمن الخيبة التي تولدت من الحدثين المشار إليهما، فشل ثورة عرابي واحتلال الإنجليز لمصر. وأجدي مسوقاً للاستشهاد بفقرتين من مقدّمة عبد الرحمن الرافي للكتاب الذي كرّسه لمصطفى كامل، تعبّران بوضوح عن تلك الحقبة وصعوباتها وعن دور مصطفى كامل في نضاله المبكر للخروج منها إلى الحرية. يقول الرافي: "وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذي ظهر فيه، وأقوى من العوامل المثبطة. فأخذ يثابر على دعوته، ويناضل عنها، حتى استجابت الأمة لندائه. فكانت نهضة، وكانت حياة، وكان شعور، وكان جهاد.. كانت رسالته إلى مصر كصرخة الحياة الداوية في سكون النوم العميق. كانت رسالة الأمل بعد اليأس، والحياة بعد الخمود، والكرامة بعد الهوان، والجهاد للحرية والاستقلال بعد الاستسلام للاحتلال والاستعباد. وإذا كانت الدعوة الوطنية التي دعا إليها وناضل من أجلها قد صارت بعد ثمانية عشر عاماً من جهاده طبيعية محببة إلى النفوس، فإنّ الطريق إليها كان شائكاً. لقد كانت في حاجة إلى إقدامه وعبقريته وإيمانه. فهي كحادث اكتشاف القارة الأميركية، ظهر طبيعياً ومعقولاً بعد تمام الاكتشاف. لكنّه كان في حاجة إلى أقدام "كريستوف كولومب" وعبقريته. فالروح التي بعثها مصطفى كامل في الأمة هي التي مهّدت السبيل لثورة سنة ١٩١٩ التي اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحركة الوطنية. وهم في ذلك مخطئون، لأنّ الثورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين. بل هي حوادث اجتماعية، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعاً لدرجة استعدادها، ونتيجة لسريان روح الوطنية في نفوس أبنائها. فلولا الوطنية التي بنّها مصطفى كامل في نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عاماً التي قضاها في الكفاح، لمرت سنة

١٩١٩ كما تمرّ غيرها من السنين دون أن تتجلّى فيها روح الثورة. فالثورة هي غرس الوطنية. والوطنية هي نتيجة لعوامل عدّة أولها جهاد مصطفى كامل المتواصل طول حياته".

فمن هو مصطفى كامل؟

وُلد مصطفى كامل في عام ١٨٧٤ في مدينة القاهرة في حي "الصليبية". وكان والده ضابطاً ومهندساً ملكياً. وكان حريصاً على تربية أولاده على الاستقامة التي كانت من سماته. وكان ذلك حال والدته. عهد والده إلى فقيه لكي يعلّمه القراءة والكتابة في منزل العائلة وهو في سن الخامسة من عمره. وفي سن السادسة أدخله والده في "مدرسة والده عباس الأول" الابتدائية. توفي والده وهو ما يزال في المدرسة الابتدائية. فأحدث ذلك عنده حزناً عظيماً. فكفله شقيقه الأكبر حسين باشا واصف الذي صار فيما بعد وزيراً للأشغال. أنهى مصطفى كامل دراسته الابتدائية في عام ١٨٨٧ ونال الشهادة في احتفالٍ كبير حضره الخديوي توفيق. انتقل بعد ذلك إلى المدرسة التحضيرية. وبرزت مواهبه التي كانت البداية في التعبير عن شخصيته في تلك المرحلة من دراسته التي صار يُعرف بها فيما بعد. وقد تعرّف في ذلك الحين إلى علي مبارك أحد الشخصيات الوطنية المعروفة وكان وزيراً للمعارف. فقال له بعد أن اكتشف بعض مواهبه "إنك امرؤ القيس"، وبشّره بأنّه سيكون شخصية مهمة في تاريخ مصر. في عام ١٨٩١ نال شهادة البكالوريا الثانوية وانتقل إلى دراسة الحقوق في المدرسة الخديوية. وبعد نجاحه في السنة الأولى من دراسته انتقل إلى مدرسة الحقوق الفرنسية جامعاً في دراسته بين المدرستين. وحصل على شهادة الحقوق من الجامعة الفرنسية في مدينة تولوز في عام ١٨٩٤.

كان مصطفى كامل لا يزال في المرحلة الثانوية من دراسته عندما بدأ يمارس نشاطه السياسي باسم وطنيته التي كانت تتكوّن عنده بسرعة. كان في السادسة عشرة من عمره عندما غمره شعور قوي يدعو إلى القيام بواجبه إزاء وطنه. فأسّس مع عدد من أصدقائه جمعية أدبية ووطنية سماها باسم المنطقة التي وُلد فيها "جمعية الصليبية الأدبية". وكان إلى جانب تلك الجمعية جمعية أخرى تحمل اسم

"جمعية الاعتدال". وكان مصطفى كامل يحضر الاجتماعات التي تعقدتها ويتعرّف فيها إلى الشخصيات التي ترتادها وصار يدعوها لزيارة جمعياته. ولم تمضِ ثلاثة أشهر حتى صار أعضاء جمعياته سبعة وعشراً. وكان يلقي مساء كل يوم جمعة خطاباً في أعضاء الجمعية ومن يأتي إليها من الزوّار ليتحدّث في الشؤون الوطنية العامة. وبدأ منذ ذلك الوقت يرسل الصحف.

كان نشاط مصطفى كامل في تلك السنة المبكرة من عمره وفي ذلك الزمن الصعب الذي أشرت إليه المتمثّل بفشل ثورة عرابي واحتلال الإنجليز لمصر، دليلاً واضحاً على نضوج مبكر في وعيه وفي شعوره الوطني العميق. فهو كان يرى منذ ذلك الوقت أنّ اليأس ممنوع وأنّ الإحباط لا يقود إلاّ إلى الاستسلام للواقع القائم. وكان يرى بوعيه الوطني المتقد أنّ الأمة بحاجة إلى مَنْ ينهض بها من كبوتها، وأنّ النهضة تفرض العمل على إيقاظ المصريين إلى مسؤولياتهم في الدفاع عن وطنهم. وفي ظل هذا الوعي المبكر تكوّنت شخصيته الوطنية الفذة.

كانت مشاعره الوطنية تقوى وتشدّد كلّما كان يكبر. وكان وهو طالب في مدرسة الحقوق يسعى للتعرف إلى كبار شخصيات مصر في ذلك التاريخ. وكان ممّن تعرّف إليهم من تلك الشخصيات الشاعر إسماعيل باشا صبري وعلي بك فخري والشاعر الشيخ علي الليثي وأمين باشا فكري وآخرين ممّن كانوا أعضاء في مجلس شورى القوانين. وانتقل في السنتين الأولى والثانية من دراسته في مدرسة الحقوق إلى مدينة الإسكندرية حيث التقى بشارة تقلا أحد مؤسّسي جريدة الأهرام بواسطة صديقه شاعر القطرين خليل مطران. ونشأت بينه وبين تقلا علاقة صداقة أهّلته لأن يبدأ في نشر مقالاته ومراسلاته في الأهرام. كما كان ينشر بعض مقالاته في جريدة "المؤيد" لصاحبها علي يوسف. وبدأ في عام ١٨٩٣ بإنشاء مجلة أعطاه اسم "المدرسة" التي بدأت تصدر في مطلع كل شهر . وجعل لها شعاراً ثابتاً "حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك".

وحين بلغ السادسة والعشرين من عمره أصدر مجلة "اللواء" التي حملت على صفحاتها مواقف ومواقف الوطنيين المصريين من أمثاله. وفي عام ١٨٩٢ تعرّف إلى خطيب الثورة العربية عبد الله نديم. كانت أولى زيارته إلى فرنسا في عام ١٨٩٤ ليؤدّي امتحان السنة الثانية في الحقوق باللغة الفرنسية في مدينة تولوز. وزار باريس وبروكسيل، وراسل الأهرام من هناك.

كثف مصطفى كامل، استناداً إلى وطنيته الأصيلة، نشاطه في الدفاع عن وطنه مصر وعن حقّها في الاستقلال، مستنداً في ذلك إلى التاريخ القديم والحديث لمصر، ساعياً بكل الوسائل لكسب الأصدقاء من كل جهات الأرض في المعركة من أجل الاستقلال والجلء". وصار يسافر إلى أوروبا لكسب الأصدقاء للقضية المصرية. وفي عام ١٨٩٥ وجّه من فرنسا نداءً في شكل صورة رمزية قدّمها إلى مجلس النواب تمثّل مصر وهي ترسف في قيود الاحتلال وتستصرخ فرنسا للمساعدة على تحريرها مثلما ساعدت أميركا وإيطاليا واليونان وبلجيكا على نيل حرياتها. وقد أحدث ذلك النداء دويماً في الأوساط الفرنسية وفي الأوساط المصرية في الداخل والخارج. وأجرى في الآن ذاته حديثاً في جريدة "الجورنال" الفرنسية عن مصر وعن المسألة الوطنية المصرية. وألقى في العام ذاته (١٨٩٥) خطاباً مدوياً في مدرج كلية الآداب في مدينة تولوز.. وظلّ يسافر إلى فرنسا حاملاً معه قضيته الوطنية وآماله ومطامحه في الحرية والاستقلال. وكان لا يترك فرصة ملائمة إلاّ ويستغلها لطرح القضية المصرية. وقد رأي وهو في باريس في عام ١٨٩٦ أن يوجّه رسالة إلى غلادستون المعروف في بريطانيا بحسب تعريف مصطفى كامل بشيخ الأحرار. جاء فيها: "اسمحو لأحد أبناء وادي النيل، لوطني لا أمنية له إلاّ تحرير بلاده، أن يقصدكم اليوم ليسألكم رأيكم عن حال مسألة مصر، فقد كنتم منذ احتلت إنجلترا وطننا أشد نصراء الجلاء، وجاهرتكم مراراً عديدة بأعلى صوتكم أنّه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر إلى أجل غير محدود، فإنّ عملاً كهذا يمس شرفها أشد المساس. لقد سجّلنا كل تصريحاتكم في هذا الصدد، ولو أنّكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة في يدكم لأسباب نجهلها جهلاً تاماً. فإنّنا لا نزال نظن

أَنَّ اعتقادكم الآن كاعتقادكم في سالف الزمن، أي أنه ليس لمسألة مصر إلا حل واحد وهو الجلاء. ولهذا رأيت من المفيد أن أرجو منكم في هذا الوقت الذي اضطرت فيه أحوال المسألة الشرقية أن تعرفوا حقيقة إحساسكم نحو بلادنا. فإن كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء كما نظن ذلك فمتى تظنون أنه يمكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد؟ فضلاً عن ذلك فإنّ تصريحاً منكم في مسألة مصر يكون له أعظم قيمة في هذه الأيام التي يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الإسلام، وإني مع انتظاري الجواب على كتابي هذا أرجو منكم أيها السيّد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامي. مصطفى كامل"

ولدى عودته إلى مصر في ذلك العام ذهب مصطفى كامل إلى الإسكندرية ليلقي أول خطاب له في موقفه الوطني حدد فيه برنامجه في النضال من أجل استقلال مصر ومن أجل الجلاء. ونصّ رسالة إلى أبناء الإسكندرية جاء فيها: "أبناء وطني الأعزاء. يعجز قلبي ولساني أن يؤدي لكم واجب الشكر على ما أظهرتموه نحوي من العواطف الشريفة، وما أبديتموه لي من علامات الودّ والإكرام. ولولا أنني معتقد أنكم لم تقصدوا بمظاهرتكم نحو أضعف خدمة الوطن إلا إعلاء منار الوطنية ورفع شأن الوطن العزيز لكنت أخلج أن أمسك القلم وأسطر هذه السطور. إنّ الأمة المصرية لذاكرة كلها مظاهرة (3 مارس) الشريفة التي أظهرتم فيها رغائبكم وطالبتكم بحريّتكم وسعادتكم الاجتماعية، وبرهنتم على أنكم تقدّرون الوطنية الصادقة حقّ قدرها وتعرفون مزية السكينة والاعتدال في خدمة الأوطان. فاعملوا دائماً بهذه المبادئ السامية لنبلغ الآمال ونشرق لنا شمس السعادة والإقبال. وما مثلي أمامكم ومثلنا جميعاً أمام الوطن العزيز إلا كمثل رجل وجد أمّه عليّة سقيمة فأحسّ من نفسه الحنو والشفقة عليها فقام منادياً إخوته للعمل معه لشفاء علّتها حيث وجدهم جميعاً يحسّون نفس إحساسه ويشعرون شعوره، وفرح بهم وفرحوا به واجتمعوا على خير أمهم المحبوبة. فليتم لنا هذا الاجتماع المرغوب حتى يبرأ الوطن من علّته ويسلم من دائه العضال، دتم له يا أعز بنيه وأصدق حُماته. مصطفى كامل".

وهكذا بدأت تكبير شخصيته وبدأ يصبح اسمه واحداً من رموز الوطنية المصرية الراجعة. وكان في كل خطبه وفي مقالاته وفي المبادرات التي كان يبتدعها حريصاً على مكافحة الرضوخ لليأس والإحباط، عاملاً بكل طاقاته لخلق نهضة وطنية مصرية شاملة. وكانت خطبته في التياترو الإيطالي في عام ١٨٩٩ ذات دوي كبير في الأوساط الوطنية والشعبية، قال فيها: "إنه كلاً تقادم هذا العهد تضاعفت واجباتنا نحو الوطن العزيز. فقد ظهر للعالم أجمع أنّ إنجلترا تعمل للاستيلاء على مصر ووادي النيل، وترمي إلى نزع كل سلطة من أيدي المصريين، وتحقق للعمامة والخاصة أنّ المدنية الإنجليزية لا تعرف في سياستها مع الأمم الضعيفة معنى للعود والعهود، ولا ترعى حرمة للعدل والإنصاف".

في عام ١٨٩٩ أصدر مصطفى كامل جريدة "اللواء" وكانت تصدر يومياً حتى في يوم الجمعة، إلا أنه بدأ يحجبها في يوم الجمعة ابتداءً من عام ١٩٠١. وكان يحزّر بنفسه افتتاحياتها. وكان من كتّابها محمد فريد وأحمد شوقي وخلييل مطران وإسماعيل صبري ومحمد فريد وجدي. وتحولت الجريدة إلى مدرسة في الوطنية المصرية. وكان في خطبه وفي مقالاته في "اللواء" من أوائل من طالبوا بدستور مصري وبحكومة وطنية مصرية. ودعا في مقال له في "اللواء" في عام ١٩٠٤ إلى إنشاء مجلس نيابي. وجاء في المقال: "ليس للاحتلال مصلحة في إيجاد مجلس نيابي لهذه البلاد. ولكن صوت الأمة يعلو على صوته إذا تمسكت به ودعت إليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات التي هي أكبر الوسائل الفعالة في حياة الأمم. فلنتفعل فإنما هي تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال".

في عام ١٩٠٥ جمع خطبه في كتاب أعطاه عنوان "المصريون والإنجليز". وفي عام ١٩٠٦ الذي وقعت فيه حادثة "دنشواي" الشهيرة التي سقط فيها مصريون على يد الضباط الإنجليز، ارتفعت وتيرة العمل الوطني، واتخذت أشكالاً وصفات مختلفة. وكان مصطفى كامل من أبطال تلك اليقظة المصرية. والمعروف أنّ تأسيس الجامعة المصرية جاء في تلك الفترة، وكان سعد زغلول من أوائل من تولّوا وزارة المعارف في تلك الفترة. وتحولت القضية المصرية إلى قضية ذات اهتمام جماعي، الأمر الذي

اضطر سلطات الاحتلال إلى تغيير بعض سياساتها. وكان عام ١٩٠٧ عام الحدث الوطني الكبير الذي تمثّل بتأسيس "الحزب الوطني" برئاسة مصطفى كامل. وكان قد سبق تأسيس الحزب رسمياً تأسيس جمعية سرية باسم الحزب الوطني. وشارك في التأسيس في اجتماع عقد في منزل محمد فريد الذي تابع بعد وفاة مصطفى كامل المهمة ذاتها في قيادة الحزب، شارك في التأسيس مصطفى كامل ولطفي السيد ومحمد عثمان ولبيب محرم وشفيق عثمان. وكان من بين المؤسسين الخديوي عباس. وهي رواية استقيتها من السيرة الذاتية للسيد.

في أعقاب تأسيس الحزب الجديد أصدر مصطفى كامل جريدتين يوميتين إلى جانب "اللواء" الأولى بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية للدفاع عن حقوق مصر وإطلاع الرأي العام العالمي على الشؤون المصرية وردّ الافتراءات التي كانت تروجها سلطات الاحتلال. وأسّس من أجل ذلك شركة لتمويل الجريدتين. واختار لإدارة تحريرها من اعتبرهم أهلاً لتلك المهمة من كبار الصحفيين. وكتب في الجريدة الصادرة بالإنجليزية "إجيشان ستاندرد" مقالاً في شهر مارس من عام ١٩٠٧ جاء فيه: "ليس في جهادنا لحرية وطننا ما يخيف أحداً من الناس. فإنّ التسامح والكرم من الصفات التي تفتخر بها مصر على الدوام، وأنّ في هذا المكان لمتسع لكل العاملين وكل الرجال المستقيمين النزاهيين. وسيرى جميع الذين يعيشون فوق أرض مصر البديعة مقدار تمسّكنا في الحال والاستقبال بمبدئنا الذي تضمنته هذه الكلمة: (أحرار في بلادنا. كرماء لضيوفنا)!" وختم خطبته بقوله: "إنّ العمل الذي نعمل له يرمي إلى جعل مصر بلاداً كبيرة كريمة، وإنّ الاتفاق بين المصريين والأوروبيين هو من أهم مبادئنا الأساسية، فاسمحوا لي إذن أيها السادة أن أدعوكم لأن تحيوا معي ذلك اليوم الذي لا بد من مجيئه والذي يرى فيه العالم طرا شروق شمس الحرية والاستقلال في مصر".

في عام ١٩٠٨ توفي الزعيم بعد أن كان قد أسّس نهجاً طيباً ثابتاً ظلّ يتراكم تأثيره حتى عام

١٩١٩ عام الثورة المصرية الجليلة.



تلك هي بعض التفاصيل التي تميّزت بها شخصية هذا الزعيم المصري الكبير الذي يذكر اسمه بين أوائل من أسسوا نهضة مصر الحديثة في مطلع القرن العشرين. ولا يسعني قبل أن أترك القلم إلا أن أقدم للقارئ بعض كلماته الخالدة:

"اشترك الشعب في حكم نفسه سبب الرقي. من الشعوب من يسلم زمام أموره إلى حكومته، ويجري طوع إرادتها. ومنها من يجعل للحكومة حداً في السلطة والنفوذ، ويراقبها مراقبة شديدة. إن أحسنت كفاها، وإن أساءت قضى عليها. فشعوب الشرق، من النوع الأول وشعوب الغرب من النوع الثاني. ولذلك كان الشرق في تأخر وانحطاط، وكان الغرب في تقدّم وارتقاء. لأنّ الشعب هو في الحقيقة صاحب البلاد، وسيدها، وحارس الوطن من كل الأخطار. وما الحكومة إلا وكيل عنه، تختار من نخبة أبنائه، ومن أشدهم حرصاً على مصالحهم".

"إنّ الشعب هو القوة الوحيدة الحقيقية. على أننا لو تأملنا قليلاً إلى ما أقيم في هذه البلاد من عظام الأعمال، لوجدنا أنّ الشعب هو المنشئ له، والموجد لكيانه. فهؤلاء الأفراد الصغار، الذين لا يعبا بهم الكبراء والعظماء، هم في الحقيقة قوام مصر، ومصدر نعمتها. ولولاهم ما عرفنا العيش أبداً. من المؤلّف للجيش؟ أفراد الشعب. ومن المكوّن للشرطة وحفظ النظام؟ أفراد الشعب.. ومن الموجد لمحصولات مصر وخيراتها؟ أفراد الشعب. ومن يُعيّش العظماء والكبراء والأمراء؟ أفراد الشعب. فهم، دون غيرهم، قوام الوطن، ومصدر خيره ومجده وسعادته. فكيف يجحف بحقوقهم؟ وكيف يهانون؟ ألا ترى أنّ العظماء إنّما هم كذلك، لأنّ أفراد الشعب يحملونهم فوق رؤوسهم، ويطيعون أوامرهم؟ وإلا فلو تحوّل الشعب ضدهم فماذا يفعلون؟ وهل يستطيعون مقاومته، أو يقدرّون على الوقوف أمامه؟ كلا، ثم كلا ! إنّ الشعب هو القوة الوحيدة الحقيقية، وهو السلطان الذي يخضع لإرادته أكبر العظماء وأعظم الأقوياء...".

"المساواة أمام الوطن. إنّ الناس سواء أمام الوطن، في الحقوق والواجبات.

المواطنون متكافلون متضامنون. إذا ظلمت الحكومة أحدها، ولم نعمل لردّ هذه المظلمة، كان ظلم

الحكومة واقعاً لا محالة على الجميع...".